فرعون

لقد كان فرعون نموذجا مثاليا لتحول الظلم والا ستبداد والطغيان إلى سجايا وطباع وخصال تمتزج بروح ونفس الظالمين حتى تصير بعد حين حقا مكتسبا يراه مقترفوه شيئا طبيعيا للغاية ويتعجبون جدا من تلك الأصوات (النشاز) التي تستنكره وترفضه

إن الظالم والمستبد بعد هذا الامتزاج والتحول الكامل يتعامل مع الأشياء بمنطق القوة وحسب

وهذا ما حدث لفرعون..

إنه شيء يشبه الحياة البرية في الأحراش والأدغال البدائية حين يبسط الحيوان نفوذه من خلال القوة ويصير متسلطا على باقي القطيع الذين يرهبونه لقوته ووحشيته

في تلك الحالة لا يعتبر ذلك الوحش تسلطه أمرا يستدعي تعجبا أو دهشة ولا يتصور أن أحدا يمكن أو يحق له أن ينكر عليه حقه في التحكم بمجريات القطيع

هذه هي ذات النفسية التي يتعامل بها المستبدون الذين تغلغل في نفوسهم الاستبداد والتيه بالقوة و الجبروت حتى لم يعد الفساد في أنظارهم فسادا ولا الظلم ظلما بل هم أثناء ممارسة كل ذلك لا يجدون أدنى غضاضة ولا يشعرون أصلا أنهم يأخذون أكثر من حقهم الذي يعد الناس وكل حقوقهم = جزءا يسيرا منه

جزء من حق المستبد في الحياة

بل ربما تكون الدهشة والتعجب من أولئك الذين يرفضون الرضوخ ضمن القطيع لذلك الحق البديهي الذي آمن فرعون إيمانا راسخا بأنه له ومن ثم كان تعجبه من أولئك الذين لا يخضعون لسطوته ولا يقبلون بألوهيته ولا يستسلمون لاستعباده الناس وتسخيرهم لرفاهيته فتجده يتساءل في استنكار

مندهش تساؤلا يكشف لك عن تصوراته المتأصلة بأن ما يفعله هو حقه الطبيعي تماما ضمن تلك التركة التي قرر أنها بكل ما فيها ومن فيها = ملكه وتحت تصرفه

نعم ببساطة هو يتصور أن آحاد الرعية وأهلهم وأرضهم وأموالهم وأموال آبائهم بل وآباءهم أنفسهم = ملكيات خاصة له وميراث مسخر لإسعاده

إنه يتساءل تساؤلا جامعا يكشف لك عن حقيقة تلك النفسية المتسلطة التي تشربت الأمر حتى النخاع حتى قالت بكل بديهية:

أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي؟!

إنه إذن حقي الطبيعي وإرثي الفرعوني..

فمما تعجبون وعلى ماذا تعترضون؟!

غريب أمركم حقا!!

وحين يصير استعباد الخلق = حقا طبيعيا راسخا

ويتحول إلى أسلوب حياة لا تشوبه شائبة ندم أو أدنى إحساس بوخز ضمير تسببه تلك الجريمة فإن الأ مر يتطور ولا يقف عند هذا الحد

وهذا ما حدث لفرعون

لم يكتف باستعباد الناس واعتبار ذلك حقه الطبيعي الذي تكفله له قوته ويؤهله إليه ملكه والأنهار التي تجري من تحته

بل تمادى حتى جعل ذلك الاستعباد نعمة ومنة يمُنّ بها على من استعبدهم وأذلهم

والحق أنه لم يجرئه على ذلك إلا تلك النفوس الذليلة التي لم تستطع أن تقول له يوما: لا

لهذا انطمست في نظره حقيقة ما فعل فصدق أنه إله يعبد بل واعتبر ذلك الإذلال هو محض امتنان منه على الناس وكفاهم فخرا أنه ربهم الأعلى

وطالما لم يجد من يعارض زعمه أو يرفض إذلاله وبغيه فليفعل إذا ما بدا له

"وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل"

كانت هذه الجملة صادمة التي صدع بها نبي اللّٰه موسى في وجه كاشفة حاسمة تبين ظن فرعون واستخفافه بالخلق

لكن هل كان هذا الظن والامتنان = محض خيال من فرعون؟!

لا وألف لا

لقد ساعده من استخفهم على ترسيخ ظنه

أولئك الذي يرون الاستعباد منّة ويعتبرون الإذلال نعمة فيفخرون بمُذليهم ويمتنون لمستعبديهم ويرقصون طربا لمنتهكيهم وساحقيهم

فإن وُجدوا وفعلوا فماذا تنتظر من فرعون إلا أن يمن عليهم بتلك النعمة العظيمة التي فرحوا بها؟!

نعمة الاستعباد

وبالتالي سيزداد هو علوا

"إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ"

ولم يكن فرعون ليعلو في الأرض لمجرد إرادته ذلك العلو أو تصوره أنه يستحقه

ثمة خطوات واضحة واستراتيجية ناجحة من دونها لم يكن فرعون ليصير طاغية يملأ مركزه التاريخي الذي عرف به

أولا التفريق وبث الانقسام.

ثانيا استضعاف طائفة منهم وليس كلهم.

ثالثا القتل والإذلال.

رابعا الإفساد في الأرض.

هذه هي الخطوات التي التزم بها فرعون حتى صار (فرعونا)

أولى تلك الخطوات كما سبق وأشرت = التفريق

بث الانقسام

فرق تسد

{وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا}

أحزابًا متناحرةً وفرقًا منقسمةً يبغض بعضها بعضًا وينشغل بعضها ببعض

ومن خلال التفرق والتشرذم والتنازع الذي هو أول طريق الفشل يخلو الجو لفرعون ويضمن استمرار كونه الأقوى بين تلك الشيع المتحاربة التي يضعف بعضها بعضًا

لذلك سيحرص الفرعون دوما على استمرار الانقسام وترسيخ الكراهية المتبادلة بين أبناء الشعب والتي

تجعل أولويات العداوة والبغضاء بينهم بعضهم البعض وليست بينهم وبينه حتى لو كان يذلهم ويبطش بهم جميعًا

ثم يأتي دور الاستضعاف

وفرعون يحرص على استضعاف بعض الطوائف التي تشكل خطورة على استبداده وترفض طغيانه أو حتى يمكنها أن ترفضه مستقبلًا

لكنه لا يستضعف الجميع بل البعض وليس الكل

{يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ}

وفي ذلك فوائد حيث يزيد ذلك التفريق في المعاملة من ترسيخ كراهية المستضعفين المظلومين للآخرين الذين لم يستضعفوا وأيضًا يزيد من حرص الذين لم يستضعفوا على مزيد من التملق والنفاق أو الانبطاح و السكوت عن ظلم الطاغية حتى لا تزول عنهم امتيازاتهم ويضمهم الطاغية إلى قوافل المستضعفين

والاستضعاف له أشكال مختلفة ويحرص المستبد على ترسيخ قاعدة من الخوف لا سقف لها فـ...

"يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ"

إنه بذلك يرسل رسالة ضمنية أنه قادر على الأسوأ
وأنه حتى الأطفال والنساء لم ولن ينجوا من قبضته الباطشة وتنكيله البغيض فما بالك بغيرهم؟!

ثم تأتي الخطوة الثالثة

الإفساد

يعد الإفساد في الأرض من أهم أهداف فرعون
وغرضه من ذلك = الإلهاء وبث روح الغفلة بين الناس لكن ينسوا ما يلاقون من الآلام والظلم عن طريق الإ غراق في الشهوات والملذات وتيسير الملهيات و المفسدات التي تنشىء جيلًا ضعيفًا غافلًا لا يعني إلا بشهواته ولا يعرف شيئًا عن قضايا أمته

لكن كل هذا المكر قد يبور من خلال آخر وسيلة يمكن توقعها

ربما تبدأ النهاية بمشهد رضيع لا حول له ولا قوة

مشهد تلخصه الآية التي تلي ذلك الذي ذكرناه

{وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ}

وفي هذا المشهد كانت البداية

بداية المن

والفتح

فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ

أن يصل الجبروت والطغيان لدرجة تجعل والدة تقدم على إلقاء رضيعها في اليم

أن تصير الأمواج والتماسيح أرحم من بطش فرعون وجنوده

أن يصبح الملجأ والملاذ الوحيد هو المغرق العميق ويصير الإبقاء على الرضيع في حضن أمه = حلما بعيد المنال

كل ذلك يلخص لك المدى الذي بلغه فرعون

لا توجد خطوط حمراء أو ممنوعات

هاهو يثبت من جديد أنه وجنوده الغلاظ لا يتورعون عن شيء مهما فحشت قسوته

حتى هذا المشهد الذي يستجلب الرحمة إلى أغلظ الأ

فئدة - مشهد الأم تضم وليدها - لن يحرك في قلوب الفراعين شيئا ولن يمنعهم من انتزاع الغلام وإثكال أمه بأبشع وسيلة

الذبح

رضيع يذبح!!

وما الجديد؟

قد فعلوها مع غيره وكادوا يفعلونها معه وسيفعلونها مع من بعده دون أن يطرف لهم جفن

لا شك إذا أن الأمواج العاتية والتماسيح الضارية سترجح كفتها إذا قورنت بهؤلاء

ستكون أرحم بالرضيع منهم خصوصا إذا حفها الوعد والتطمين الرباني

وَلَا تخَافِي وَلَا تحزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ

ولقد فعلت

وألقته في اليم

ونجا من فرعون

بل جعل الله ذلك الأخير وآله سبب نجاته

فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا

وألقيت عليه المحبة الربانية وتمكنت تلك المحبة من قلب الصالحة آسية امرأة فرعون

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

وبذلك نجا الرضيع ولم يضره اليم ولا أمواجه ومخلوقاته

لكن يظل الموقف شاهدا على تلك القسوة والغلظة التي يندر أن تجدها إلا لدى فرعون وهامان ومن سار على نهجهما

"إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ"

ورغم أن فرعون كان قد قبل مطلب زوجه وأبقى على موسى في بيته إلا أن ذلك على ما يبدو لم ينسه ولا الملأ من حوله حقيقة موسى أو يجعلهم يتقبلونه كواحد منهم أو ابن لهم كما يزعم بعض المؤرخين

بل لقد ظلت نظرتهم العنصرية له موجودة تنتظر اللحظة المناسبة لتظهر على السطح وتتم الإطاحة به عند أول فرصة

لعل الدليل الواضح على ذلك هو تآمرهم السريع وقرارهم الحاسم بقتله بعد مقتل المصري بوكزته

وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ

لو كان موسى فعلا يعامل معاملة الأمراء أو كان فرعون يعتبره بمثابة ولد له ولو بالتبني فإن رد الفعل المتوقع تجاه الأمير إذا أخطأ لم يكن أبدا ليصل إلى درجة المسارعة بالقتل

قتل دون محاكمة أو بحث أو سؤال عن ملابسات

الحادثة

فقط القتل هو ما يعرفونه تجاه من يستضعفونهم

وحتى لو أن المؤامرة كانت من طرف الملأ وحدهم دون إذن فرعون فإن غضبة هذا الأخير المتوقعة لو كان يأبه بموسى أو يهتم بأمره = كانت لتمنعهم عن الإقدام على قتل الأمير المتبنى

لكن الظاهر أنهم قد أمنوا العقوبة وعرفوا حقيقة مشاعر فرعون تجاه موسى

إنه لم ينس أبدا أنه غلام من بني إسرائيل

غلام نجا من الذبح بسبب المرأة التي رقت له لكن يظل في نظر فرعون من طائفة أخرى وطينة مختلفة

لذلك لن يرق له حتى لو قبل على مضض أن يربى في قصره

وسيعلم الجميع هذه الحقيقة التي جرأتهم على التخطيط لقتله مباشرة دون تحقيق أو مساءلة

وكذلك يفكر ملأ الطواغيت دوما تجاه من يرونهم أدنى منهم أو يختلفون عنهم

إنها النظرة العنصرية المعهودة التي رسخها فرعون بتقسيمه القوم لشيع وفرق بعضها له قيمة وثمن وديّة

وبعضها لا شيء له على الإطلاق

لا شيء إلا الاستضعاف

اذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ

كان هذا الأمر الرباني هو ما تلى الأمر بإقامة الصلاة و العبودية والتقديس لله رب العالمين

وجه الأمر لموسى عليه السلام مقترنا بعلته ومُزَيّلا بفتنته

الطغيان

مجاوزة الحد

كل حد

الطاغوت هو من تخطى وتجاوز حاجز العبودية أولا ثم باقي الحواجز من إنسانية ورحمة وشفقة وعدل إلى آخر القائمة المعروفة

وهذا هو أهم ما ميز شخصية فرعون وترسخ في ذهن كل من عرفه وتعامل معه أو سمع به

فرعون طاغية لا توجد حدود أو حرمات يتورع عن تجاوزها دون أن تهتز في جسده شعرة

ولقد ترسخت تلك المعلومة للدرجة التي جعلت موسى يصرح بخوفه وأخوه من ذلك الطغيان المعلوم

"قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى"

من القائلان؟!

من المتحدثان عن الخوف؟!

إنهما نبيان مكلمان أحدهما رسول من أولي العزم ومن أقوى الخلق في الحق

نعم ...

فالخوف شعور معتبر خصوصًا ماكان منه جبليًا وهذا ما حرص فرعون على تعظيمه وإذكائه ومده بمزيد من وقود الطغيان والبطش الرهيب ليحاول -بغرس وترسيخ الخوف- كسر همة كل من يعترض على هذا الطغيان

لذا فقد كان هذا الخوف السريع المتبادر لصدر موسى

وهارون = مسببا منطقيا

إنهما يعرفانه كما يعرفه كل من عاصره وتأثر بترسيخه لهذا المبدأ

الخوف

الخوف من أن يفرط عليهما أو أن يطغى

تلك هي عادته وهذه هي سجيته

وكل من كان مثله وعلى نهجه

لذا خاف هارون

وخاف أخوه الكليم نفسه في هذا الموقف وخاف من قبل هذا الموقف بسنوات حين خرج منها "خائفا يترقب"

وبعدها سيتوجس موسى في نفسه خيفة حين يجمع فرعون كيده وسحرته

كل هذا شعور إنساني طبيعي وفطري أدرك موسى وهارون كما أدرك غيرهما من الصالحين في مواجهة فرعون وأشباهه فليس كل خوف = جبنا وليس كل خائف = خوارا

المهم هو كيف تعاملوا مع خوفهم وروضوه وأحسنوا

توجيهه ولم يرضخوا لرغبة فرعون في إذكائه وترسيخه وتعميقه حتى يسيطر على كل فعل ورد فعل فيصير خوفا متجذرا في أعماق النفس ومتغلغلا في ثنايا الروح وما أشبهه حينئذ بالنوع الأخطر من الخوف

الخوف الذي ينبغي ألا يوجه إلا للقوي سبحانه وحده ليطرد كل خوف من مخلوق مهما بلغ طغيانه وجبروته

الخوف التعبدي

"إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ"

[آل عمران 175]

ولقد ذهب موسى كما أمره الله..

لكن ذهاب موسى لم يكن لفرعون وحسب كما قد

يُظَن

إن فرعون كان الرمز الأوضح والعنوان الأجمع لتلك المنظومة

لكن الحق أن فرعون لم يكن وحده

دائما لم يكن فرعون وحيدا

دوما كانت حوله أذرع سلطانه وفروع جبروته

دائما كان هناك الملأ.. الآل.. الجند..السحرة

وكان هناك ذراعي القوة والمال

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ.. إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ "

من الذين قالوا؟!

إنهم من مثلوا ذلك المثلث الرهيب ذي الأذرع الثلاثة الباغية

ذراع السلطة متمثلا في فرعون

وذراع المال الذي استحوذ عليه قارون بجدارة

ثم ذراع النفوذ والتخطيط والتنفيذ وهو ذراع هامان

واهم من يظن أن الخلل كان قاصرا على فرعون أو أن الصراع كان معه وحده أو أنه فقط من مثل الطغيان دون شريك

إن الآية في غاية الوضوح

لقد أرسل موسى عليه السلام إلى الثلاثة معا

إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ

وإن أحد هؤلاء الثلاثة قريب لموسى نفسه

"إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ"

لكنه رغم قرابته وانتسابه لبني إسرائيل لم يتورع عن المشاركة في البغي عليهم

لعل غناه والثراء الفاحش الذي كان يرفل فيه هو ما حجبه عما تعرض له قومه من الذلة والاستضعاف

لكن العجيب حقا أن هذه القرابة لبني إسرائيل وموسى لم تمنع فرعون من خوض هذا التحالف رغم عنصريته التي سبق أن أشرنا إليها وسيأتي ذكرها مرارا عند الحديث عن باقي جوانب شخصيته

لعل ثراءه هو الذي دفع فرعون للتحالف معه ليقدما سويا صورة نمطية من صور التحالف العتيق الذي عرفته البشرية دوما

التحالف بين السلطة والمال

ولقد أجاد فرعون استغلال هذا التحالف والانتفاع بشريكي البغي تمام الانتفاع

تخطيط هامان ونفوذه

ومال قارون

تكررت في القرآن أوامر فرعون لهامان بتشييد الصروح

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ"

[القصص 38]

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا"

[غافر 36 - 37]

وحين ورد ذكر جنود فرعون لم ينسبوا إلى هذا الأ
خير وحده

بل نُسبوا إلى هامان معه

"إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين"

تأمل.. جنودهما

يدل ذلك كله على أن هامان كان المكلف دوما بالتنفيذ والتشييد وكان هو المسؤول عن مواطن القوة والبأس في المنظومة الفرعونية

بينما كان قارون ممثلا للمال والثروة والزينة والموجه لهم

والمفسد بهم

ولقد صنع مال قارون في بني إسرائيل ما لم يفعله سيف فرعون وسوطه!

هذه هي الحقيقة التي يخلص إليها من يتأمل قصة ذلك الثري المتكبر الذي استطاع بزينته أن يفتن قومه

أو كثيرا منهم

كذلك فعل قارون

وكذا يفعل كل قارون

كل من بغى على قومه ليمتص من خلال بغيه كنوزا يستعملها بعد ذلك في مزيد من استعبادهم وتركيعهم ثم لا يكتفي بعد ذلك بالاستعباد والإذلال والظلم بل يتطور الأمر لأن يستعمل الأموال والكنوز في فتنة الخلق وإضلالهم

وما أكثر من ينجحون في ذلك

إن قصة قارون في القرآن ودوره في حكاية بني إسرائيل يمثّل بوضوح ما يمكن أن يفعله المال و الزخرف والزينة في نفوس القوم

وليس أي قوم

إنهم أناس يحيا بين ظهرانيهم نبيان منهم رسول من أولي العزم ولطالما رأوا بين يديه الآيات والمعجزات وأبصروا كيف أحرج الطاغية فرعون وكيف أظهره الله عليه في كل مشهد

لكنهم رغم كل ذلك فتنوا بقارون وقالوا عنه ما لم يقولوه عن نبيهم المكلم

لذا تجد اقتران اسم فرعون المتكرر في القرآن بضلعي البغي الآخرين قارون وهامان بل وتقديم اسم قارون على فرعون أحيانا كما في سورة العنكبوت

"وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ * فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ"

كذلك ما نزل في سورة غافر من إجابة مشتركة أجابها الثلاثة على دعوة موسى واشتركوا من خلالها في تهديد من آمن معه بالقتل

فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ"

العلاقة إذا كانت وطيدة للدرجة التي امتزجت فيها

أقوالهم وصارت كأنها أقوال شخص واحد أو منظومة واحدة

منظومة البغي المتكاملة

وإلى هذه المنظومة الكلية ذهب موسى وليس فقط إليه

إلى فرعون

وبعد الأمر بالذهاب وتذليل الصعاب والاستجابة للدعاء يأتي الأمر بالقول

سيذهب موسى وهارون إلى فرعون

وسيقولا له قولا

أولى خصائص هذا القول أنه لين!

"فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ"

قد يظن البعض أن ثمة تعارض بين الأمر بالقول اللين لفرعون أثناء دعوته والذي نصت عليه سورة طه؛ وبين رد موسى على فرعون في آية الإسراء

{وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا} أي هالكا يأخذك الله

والحقيقة أنه ليس هناك تعارض وذلك لفارق التوقيت والسياقات

إن سياق الآية الأولى يشير إلى بداية الدعوة

مفتتح تعريف فرعون بالله ودعوته ويناسب ذلك القول اللين المنتقاة ألفاظه إذ لا يعقل أبدًا أن يبدأ الإ نسان دعوته بالإغلاظ على الناس

لا بد ابتداء من تعريفهم وبيان الحق لهم بلين ورغبة صادقة في الهداية

وهذا ما فعله موسى فقال بدماثة ورفق: {هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتخشى}

لكن بعد الدعوة الدمثة والنصح الصادق المشفق اللين وإظهار الآيات والمعجزات ومقابلة ذلك كله بالجحود من فرعون والإيذاء والوعيد بالمزيد = كانت الأخرى

{وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا}

فها هنا سياق متأخر بعد مراحل التكذيب الرهيب و

الجدل العقيم والصراع المرير الذي سنتعرض إلى جوانب منه في السطور القادمة

ومع اقتراب الإهلاك وعلم موسى بذلك كان لا بد من إعلان وبيان للمصير الذي ينتظره

كان المقام قد تحول إلى مقام مفاصلة وسياق تحدي لا يستعمل فيه اللين

ووضع النّدى في موْضعِ السّيفِ بالعلى مضرٌ كوضْع السيفِ في موضع النّدى.

للين موضعه

وللشدة موضعها

حتى مع فرعون!

لكن فرعون من محترفي التشتيت ومن متقني الجدال العقيم والسفسطة الفارغة والخالية من أي

منطق وهو يعشق التشغيب على الحجج والبراهين بمحاورات فرعية واتهامات وهمية كل الغرض منها التشويش على حملة الحق ودعاة الصدق

ولعل من أهم وأرقى الخصائص التي اتصف بها موسى عليه السلام وظهرت على خطابه بشكل واضح كما ظهرت على كلمات وردود تلامذته وأتباعه ومن اهتدوا بدعوته كمؤمن آل فرعون والسحرة بعد إيمانهم = التركيز على الهدف وعدم الانصراف للمعارك الجانبية التي يحاول فرعون إشغالهم بها وتشتيتهم عن أهدافهم من خلالها

بمجرد أن أتاه موسى برسالته وطالبه بإرسال بني إسرائيل معه حاول فرعون صرفه إلى تلكم المعارك الجانبية والتشتيتات والتشغيبات الفرعية

أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الكافِرِينَ

كان من الممكن لنبي الله موسى عليه السلام أن يرد

بردود كثيرة وأن يبرر مقتل الرجل المصري

كان من الممكن أن يبين أنه قتل خطأ وأنه لم يكن يقصد أبدا قتله

كان من الممكن أن يوضح أن الرجل كان معتديا صائلا و أنه فقط كان يدفعه فحدث ما حدث

كان من الممكن أن يربط الأمر بجرائم فرعون الكثيرة في حق قوم موسى من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم

كان من الممكن أن يقول الكثير و الكثير. .

لكنه لم يفعل!

لم يستدرج إلى مراء التبرير ولم يضيع الوقت في متاهات الجدال

إنه صاحب رسالة جاء لمهمة ولديه هدف عليه أن يحققه

لقد تجاوز تشغيب فرعون باعتراف مباشر

بسيط قائلا: "فعلتها إذا و أنا من الضالين"

نعم قد فعلت ولن أقف طويلا مع هذا الأمر أو أدفع عن نفسي شيئا قد حدث وقد ثفيت بسببه سنين عددا بعد أن تآمرتم لقتلي دون تحقيق أو تبين

فعلتها و تبت و استغفرت في حينها ودفعت الثمن من سنين غربة و إبعاد وخوف وترقب تآمر وقتل

فعلها موسى إذن و لم يبررها أو يزينها

ثم عبر إلى الأهم

إلى دعوته ورسالته

لم يضيع الوقت في غيابات التبريرات ليذهب مباشرة إلى هدفه الذي يعلو على الاشخاص والأحداث و يسمو على التفاصيل و الزلات

وليستمر في دعوته

قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ

فهل توقف فرعون عن ممارسة هوايته أو إن شئت فقل: حرفته وخلاصة مهارته

محال

إنه متخصص في تلك الطريقة السمجة المقيتة

لقد استمر في تشغيبه وتشويشه بالمعارك الجانبية

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ

لم يلتفت موسى وأكمل: قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ

فما كان من فرعون العاجز عن رد الحجة بمثلها إلا أن استمر في تفاهاته وحماقاته

قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُون

هنا يلجأ فرعون إلى تشغيب من نوع مختلف

السباب والإهانة والانتقاص والتشكيك في شخص الداعي

فهل التفت موسى أو رد هذه التهم السفيهة عن نفسه ؟!

أبدا

لقد استمر في مهمته السامية

دعوته

قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ

عندئذ أفلتت أعصاب الطاغية وظهر تمام عجزه

لا حيلة تتبقى إلا الإكراه والجبر أو القمع

قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ

ومع كل هذا استمر موسى ولم يلتفت

ولقد تعلم الدرس أتباع موسى والمؤمنون برسالته

لعل أوضح النماذج على ذلك ما فعله الرجل المؤمن من آل فرعون وقد تشرب طريقة نبيه وفهم غايته وهدفه

لقد حاول فرعون اتباع نفس أسلوب التشويش المتهافت مع الرجل الذي قيل أنه ابن عمه فقابل دعوته بكلمته الفاضحة لحقيقته

وبعد أن كانت البداية "ذروني أقتل موسى" يدعي بها أنه حريص على الشورى واعتبار رأي من حوله إذا به يظهر حقيقة طغيانه بعد أن فضحها قريبه بحسن منطقه ووضوح حجته

قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلا ّ َ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا
ّ َ سَبِيلَ الرَّشَادِ

فهل التفت الرجل المؤمن أو انشغل بتشغيبه

الجواب: لا

وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأ
َ ح ْ ز َ ا ب ِ

استمر في دعوته غير آبه بترهات فرعون التي وصلت إلى مستوى من السماجة والضحالة لم يسبق له مثيل

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأ
َ س ْ ب َ ا ب َ

أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى

إنها نبرة مألوفة من نبرات سخرية وربما حماقة الفراعين ..

هل تمزح يا فرعون؟

أى صرح من الطين ذلك الذي سيبلغ أسباب السماء؟!

أوبعد كل تلك الحجج والبينات التي أتاك بها موسى، وردها مؤمن آل فرعون على

مسامعك لازلت تكابر، وتتحدى، وتمارى؟!

ما أثقل ظل الفراعين وما أشد سماجة الطاغين

الحقيقة أنها ليست شبهة أصلًا فقد ختمها بقوله: وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا

إنه كالعادة التشغيب والسخرية والتسفيه وتزيين سوء العمل والصد عن السبيل

{وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلا ّ َ فِي تَبَابٍ}

ومثل هذا لا يلتفت إليه

لذا لم يلتفت إليه الرجل المؤمن من آله وأكمل دعوته الهادئة الوضيئة واستمر في أشرف وأحسن قول يمكن أن يوفق إنسان لقوله ..

البلاغ عن الله ..

الدعوة إلى الله ..

أكمل موعظته دون التفات لسماجة أو سخرية وتشغيب عساها أن تجد قلبًا ينشرح لها، بدلًا من قلب هذا الطاغية القاسي المظلم العتيد ..

أكمل كأن لم يسمع تلك الشبهة التافهة

أكمل لأنه يعرف هدفه ولا ينشغل إلا به

وكذلك حامل الرسالة

ليس لديه ترف تضييع الوقت في معارك جانبية فلا ينشغل إلا بهدفه ولا ينفق وقته أو يضيع حياته

القصيرة إلا ابتغاء تحقيقه والعمل لأجل الوصول إليه
مهما شغب الفراعين أو سخروا أو شوهوا
هو أبدا لا يلتفت
فلأمثال فرعون = لا يُلتفت

ورغم كونه إماما للطغاة ونبراسا للمستبدين وقدوة للظالمين إلا أن فرعون لم يكن يفضل أن يعترف بحقيقة استبداده أو يقر بواقع طغيانه وفساده

بل ربما ارتدى ثياب المصلحين أو تدثر بدثار الواعظين المشفقين أو تستر برداء المشاور المتقبل لرأي غيره الحريص على مشاركة عبيده القرار

هاهو يتدثر بدثار المشاورين ويلبس حلة المتقبلين لآراء الآخرين فيقول عن موسى بعد أن يأتيه بالبينات:
{إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ}

إن فرعون هاهنا يحلو له اكتمال المنظر وتمام الزينة، فيبدي من قوله ما يخالفه عمله، ويظهر من حرفه ما يكذبه فعله؛ لكنه يظل في النهاية مستبدًا طاغيًا وإن تجمل وتزين

إنها مجرد رتوش تجميلية وأصباغ خداعية لإتمام زينة المشورة الصورية، ولإكمال زيف القشرة الموضوعية

وهو يجمع حوله من يصلحون لتلك المهمة الرخيصة ممن لم يلحظوا أنه قد حكم ابتداء وقرر دون بينة أو دليل أن عدوه ساحر أو مفرق لجمع الأمة مريد لإ خراج أهلها منها وذلك بقوله ابتداءً : {إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ}

أليس هذا حكما قد صدر وقرارا قد اتخذ؟

فما قيمة قوله {فَمَاذَا تَأْمُرُونَ} إلا إكمال الزينة و الصورة الفارغة للحاكم الطيب الحريص
على الشورى؟!

لكنه حين الجد يرى وحده

"ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد"

وهو بعدها يقرر وحده

وغالبا يكون قراره الأوحد =البطش

لكنه رغم قراره الباطش لا يتخلى عن حرصه على الصورة التشاورية البراقة لمدة طويلة

بل قد يستمر في ادعائها حتى بعد أن يقرر البطش

ذرونى أقتل موسى

دعوني أتخلص منه ..

اتركوني أخلص البلاد والعباد من شر هذا الذي سيغير عقائدكم، ويضيع دينكم ودين آبائكم، ويظهر في أرضكم الفساد

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَ
َ ر ْض ِ الْفَسَادَ"

ما أطرفها من كلمات حين تخرج من هذا الفم البغيض ..

ذروني!!

وهل تستأذن أيها الطاغية؟!

منذ متى؟!

وهل مثلك من الطغاة يحتاج من أمثال تلك الحاشية من المطبلين والمنافقين أن يذروه ويتركوه؟

لكنها الصورة التي نتحدث عنها والتي يحرص فرعون على إحكام تزييفها،

بينما الحقيقة أنه لا يحتاج إلى رأيهم، ولا ينتظر إذنهم ..

وعلى كل فليس عليه أن يقلق فلن يجد منهم إلا كل تطبيل وتصفيق ..

إن من حول فرعون يفهمون جيدًا مطلبه ويعرفون أنهم جزء من زينته

لن يسمع يومًا معارضة من ألسنتهم، التي استمرأت

النفاق، وألفت الكذب، ولم تعرف إلا التزلف والتملق و المداهنة، ولم تتعود إلا على قصائد المديح، ومطولات الثناء المنافق الصريح ..

نعم الرأي رأيك يا فرعون ..

وما بعد قولك من قول ..

ما أعظم توجيهات فخامتك أيها المفدى بالأرواح ..

هكذا ستتعالى دوما صيحات المطبلين وحملة المباخر وسترتفع تهليلاتهم الداعمة للقرار

ولكل قرار ..

وهؤلاء من يجمعهم الفرعون دومًا حوله أو يسمح لهم بالبزوغ في دولته والظهور في فلك نظامه وزمرته

ستجدهم في غالب الأمر من حمائم الخلق سهلي المعشر والانقياد

إنهم يشتركون جميعًا في صفات الذلة والانقياد والا نبهار الدائم بفرعون.

أما صقور الخلق عزيزو النفس مستقلو الرأي، فلا يطيقهم فرعون ولا يستريح في وجودهم، ولا

يتعايش مع إيجابيتهم وتأثيرهم، حتى لو كانوا على الفكر والنهج نفسه

إن فرعون لن يبقى حوله إلا دنيء نفس من أراذل الخلق

من يرضى بالهوان ويقبل بالذلة الظاهرة المعلنة، ويتعايش مع كونه مجرد صدى لأفكار ورغبات سيده

ستتعدد الأقنعة وتتنوع الألقاب والمهن ما بين كهنة وسحرة وخدام وحجبة

لكن سيظل التزلف والنفاق والمداهنة والتهليل هو شعار تلك الفئة مهما اختلفت أشكالها وتنوعت ألقابها

يكفي أن يلمح فرعون إلى أنه يريد هذا الرأي، لتصير تلميحات سيادته أوامر، بل إن أحلام فخامته لا مفر من تحقيقها بكل السبل ..

هكذا تربوا ..

وعلى هذا حرصوا ..

وكذلك وصلوا

ومهما ادعوا غير ذلك فالجميع يعلمون أن حقيقة الأمر في النهاية يلخصها فرعون بكلماته الواضحة المحكمة التي تبرز دائما في النهاية لتلخص الأمر ببساطة

ما أُرِيكُمْ إِلا ّ َ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلا ّ َ سَبِيلَ الرَّشَادِ

ولفرعون معايير واضحة من خلالها يقيس الأشياء وعن طريقها يقيم الأشخاص ويزن الأحداث

هذه المعايير مادية بحتة وسطحية محضة ولا تخضع إلا للظاهر المحسوس والمرأي الملموس

هو هو نفس المنطق المريض في كل زمان ومكان

منطق الحكم من خلال الظاهر السطحي

حكم يرسخه نمط من الخلق لا يلفت انتباههم إلا المظهر المبهر ولا تنجذب أبصارهم إلا لزينة براقة أو

زخرف لامع فيقيسوا الحق والباطل فقط من خلال مقياس العظمة الدنيوية والمكانة المادية والمنصب الضخم والنسب الفخم والثراء الفاحش والنعيم الزائل

وهذا النمط من التفكير وأصحابه هم الذين يستخفهم فرعون ومنطقه إذ ينادي فيهم قائلا: يا قوم أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الأ َ ن ْ ه َ ا ر ُ تَجْرِي مِن تحْتِي

هذا هو ما أرادهم دوما أن ينتبهوا إليه

الظاهر الذي يمكنهم إدراكه بالحواس المباشرة

الملك والصولجان والأنهار والنعيم

لذلك سألهم: أَفَلَا تُبْصِرُونَ

هو إذن ترسيخ للحكم البصري المظهري والتقييم المؤسس على أساس الرؤية الخارجية والمقاييس المادية وحسب ..

لذلك كان بعدها ذلك القياس الذي نتحدث عنه والذي يعرضه فرعون دوما على أنه المنطق الوحيد والمعيار المتفرد الذي يحكم من خلاله على الأشياء

"أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ"

يستمر فرعون هاهنا في توجيه الأنظار للمحسوس من الصفات والأفعال

هو في هذا الموطن يشير بكل خسة وحقارة إلى عقدة لسان موسى وهو أمر ظاهر يمكن إدراكه

بل ويمعن في الإشارة فيرميه بالعجز عن البيان

ولقد طلب نبي الله موسى من ربه أن يحلل تلك العقدة

إذن فهي موجودة

ولقد بين أن صدره يضيق ولا ينطلق لسانه

ولقد أقر موسى عليه السلام بأن أخاه هارون هو أفصح منه لسانًا

إذن فالأمر يحمل شيئا من الحقيقة وثمة مشكلة لدى موسى عليه السلام في جانب البيان والفصاحة

لكنه مع كل ذلك قد بلغ رسالته وأدى أمانته

ونصح لأمته

ولقد وصلت دعوته

وصلت وبلغت قلوب أعدى أعدائه فآمن سحرة فرعون وآمنت امرأة فرعون وآمن مؤمن من آل بيت فرعون

آمنوا برب موسى واتبعوا دعوة من لا يكاد يبين

إن من البيان لسحرا والفصاحة وجذالة اللفظ شيء مستحسن لذا كانت علة مطلب موسى بإشراك أخيه ا لأفصح

البيان مهم بلا شك

والظاهر من الأشياء له دور وقيمة

لكنه ليس الأهم

وليس وحده مناط التكليف ولا سبب القبول الأوحد

العبرة بلسان الصدق وتشرب القلب لمعاني الحق وليس فقط في المظاهر

تلك التي لا يفهم فرعون سواها فيستمر في ذكرها و النيل من موسى عن طريقها

فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ"

َ لقد قاس على نفس المعيار الذي ينبهر به خفيفو العقول في كل زمان

معيار المظهر الخارجي وزخرف الفعل والقول

ومن يقبل القياس على هذا الأساس يستحق بجدارة أن يتسلط عليه فرعون وأمثاله فهم ممن قال الله فيهم في السياق نفسه: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ

قوم فاسقون بمعيارهم الفاسد وحكمهم المنقوص وتصورهم المريض الذي هيأ لهم ولأمثالهم أنهم يقسمون رحمة ربك

"أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ"

أهم يتحكمون فيها فيعطونها لمن أعجبهم ويمنعونها من حقروه ولم تبهرهم زينته أو تخطف أبصارهم لمعة نسبه ومكانته وينسي هؤلاء أو يتناسوا أن الله هو من قسم بين الناس معيشتهم ورفع بعضهم فوق بعض درجات

وأن..

"رَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ"

فكم من سادة و أكابر بعين الخلق ، بينما هم عند الله أصاغر أهون من الجُعل وأصغر من الذر ، كما صح عن النبى صلى الله عليه و سلم

كم من أناس يشار إليهم بالبنان ، و تنظم فى مدحهم القصائد ، و تدبج فى مناقبهم المقالات و المقولات ، و هم فى الحقيقة لا يساوون عند الله جناح بعوضة ، و لاقيمة لهم في الميزان

العبرة ليست بعظمتهم و جاههم ووجاهتهم في الدنيا و لا بين الناس إنما العبرة بحقيقة العبد وسره المنظور المدرك ببصر الله وسمعه، وميزانه العادل القسطاس

قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : "إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرءوا : { فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا } ، صحيح مسلم ،

هذه هى قيمته الحقيقية عند الله

جناح بعوضة !

بل أهون و أرخص

وكذلك كان فرعون

وهذا للأسف ما لم ينتبه إليه من استخفهم فرعون

ومنطق فرعون

ولابد لفرعون من سحرة!

سحرة يزينون باطله ويحسنون فساده وإفساده، ويجملون بغيه ويشرعنون بطشه، ويسوّقون باطله، ويرهبون معارضه، ويخوفون رافضه

والعلاقة بين السحرة وفرعون لم يبتدعها هذا الأخير

إنها دوما علاقة تكافلية موجودة بين الطغاة وبين السحرة

وهذا النوع من البشر - المستبدون - لهم أسلوب متشابه وطرق مشتركة ولهم طبيعة واحدة ورثها فرعون عن النمرود، وشاركهما فيها ملك الأخدود وأصحاب الرس وثمود، وطواغيت عاد قوم هود

توارثوها بغير نسب ولا عصب، وورّثوها لكل مستبد جاء بعدهم، كأنما تواصوا بها؛ بل هم قوم طاغون.

ومن هذه الطرق المتكررة والطبائع المشتركة = وجود السحرة إلى جوارهم

لقد كان لصاحب الأخدود ساحره، الذي طالما خدع الناس بألاعيبه وحيله ليعبدهم لمليكه وقد حاول هذا الساحر تعليم الغلام تلك الحيل والألاعيب وهذا لمعرفته بتلك الطبيعة

لابد من وجود ساحر إلى جوار الطاغية

ولقد كان لفرعون سحرته الذين طالما جمعهم ليسحروا أعين الناس ويسترهبوهم ولطالما فعلوا وجاءوا بسحر عظيم

لكن السحر يتنوع حسب الزمان والمكان؛ فليس كل السحر = حبالًا وعصيًا أو تعاويذ وأعمال كما في صورته النمطية القديمة بل: "إن من البيان لسحرًا". كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولتعرفن أهل ذلك السحر في لحن قولهم وتزيين أكاذيبهم.

وإن الساحر قد يتقنع بشتى أنواع الأقنعة، ويتدثر بمختلف الهيئات والأغلفة، التي تخفي زيفه وتستر حقيقته؛ فما بين قناع مثقف، وعباءة نخبوي، وأصباغ غانية، وطلاقة لسان، وعمامة شيخ سلطان وإمام ضلا لة وبهتان = يتخفى السحرة

لكن مهما تنوعت أستارهم واختلف دثارهم وزيّف سمتهم فإن هذا لن يغير الحقيقة

حقيقة أنهم يشغلون منصب سحرة الطاغية وسدنة

المستبد، وأنهم مهما تقنعوا أو تنخبوا أو تثقفوا أو حتى تعمموا وتسننوا ظاهرًا فإن قولهم وفعلهم ومآل صنعهم يثبت لك دائما أنهم مجرد سحرة.

سحرة قد تكون جريمتهم أحيانًا أشد وطأة من جريمة فرعون نفسه

ذلك بأن فرعون قد يُطاع خوفًا من سيفه ورهبة من سوطه وانبطاحًا أمام جبروته؛ لكن ذلك كله قد يزول لحظة انهيار حاجز الخوف وتمكن الإيمان من القلوب حتى تعلم أنه لن يصيب أصحابها إلا ما كتب الله لهم

لكن الساحر حين يزين البغي ويشرعن العدوان ويجمل الفساد ويسحر أعين الناس ويسترهبهم فإنه بذلك يصنع حالة من اللامبالاة والتنطع والاستسلام الطوعي؛ بل والاقتناع والسعادة وربما الانبهار بصنيع فرعون حتى يستمريء الناس من حوله الذل ويتلذذوا بالهوان، أو يرسخ الساحر تعظيمًا لفرعون ورهبة منه في تتشربها نفوس الناس فتجعلهم يفكرون ألف مرة قبل أن يغادروا حالة الاستخفاف التي أرادها لهم فرعون

باختصار الساحر يصنع جيلًا ممسوخًا من المقتنعين بقمع النار والحديد، بل وربما من المطالبين بالمزيد و المزيد والفرحين بأنهم للفرعون عبيد.

لأجل هذا الارتباط الوثيق بالسحرة = فإن السحر كان أول ما تبادر إلى ذهن فرعون حين برز له موسى بما يخالفه أو يسوؤه

"قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ" الشعراء

"قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ * فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى" طه

"وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ" الذاريات

هكذا كرر فرعون..

وليس فرعون وحسب

بل كذلك فعل الملأ من حوله تلك التهمة الجاهزة التي يعرفونها جيدا

"قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ " الأعراف

"فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ" يونس

"فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ" النمل

إنهم يظنون أن كل الخلق مثلهم يحتاجون للسحر وحيله للتلاعب بعقول الناس

نفس التهمة قيلت مرارا عن نبينا صلى الله عليه وسلم

"إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ" المدثر

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) القمر

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) الأنعام

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) ص

وليس نبينا وحسب بل هي تهمة جاهزة ترفع في وجه كل مصلح بصيغ مختلفة

قيلت للمسيح عليه السلام

"وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُبِينٌ" الصف

بل قيلت لسائر النبيين والمرسلين

(كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) الذاريات

هذا ما يعرفه المجرمون وذاك ما يتصورونه

ولذلك كانت نصيحة الملأ لفرعون "أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ"

ولقد استجاب فرعون

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ"

ظنا منه أنه سيفل الحديد بمثله فقد قرر فرعون أن يستعين بأهم أعوانه

السحرة..

ولأن فرعون قاريء جيد لأطماع الناس وبما أنه ذو

خبرة ممتازة في استغلال شهوات أتباعه وتحريكها لتخدم مصالحه

= فقد قرأ فرعون الطمع في سؤال السحرة عن الأجر حين استدعاهم لمواجهة عدوه موسى

"أئِنّ لنَا لأ َ ج ْ ر ً ا إِن كنّا نحْنُ الغَالِبِينَ"

كان هذا قبل السجود

قبل أن تخالط قلوبهم بشاشة الإيمان بالرب المعبود

في هذا المقام كانت الدنيا وثوابها هي كل ما يشغل السحرة ويحركهم

وفرعون خبير بمثل هذه المطالب

اطمئنوا إذن

الإجابة: نعم

نعم لكم الأجر الدنيوي والمثوبة الزائلة العاجلة

ليس هذا فحسب

بل زاد فرعون في إجابته على مطلبهم بأن طمأنهم على موقعهم منه فقال: وَإِنّكُمْ إِذًا لَمِنَ المُقَرّبِينَ

ستكونون قريبين من السلطان

ستكون لكم حظوة لديه وزلفى عنده

سيكون لكم ((ظهرًا)) فلن يجرؤ أحد بعد اليوم على ضرب بطونكم

يالسعادتهم وحماستهم بعد هذا الوعد من الطاغية ذي الأوتاد

فليتفانوا إذن وليبذلوا قصارى جهدهم ولينفخوا وينفثوا في عقدهم فقد صدر الوعد الفرعوني واطمأنوا على عاجل مستقبلهم

فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُون

هكذا أعلنوها قميئة سخيفة سمجة

بعزة فرعون

لابد من الشعار

العنوان

لابد ألا ينسى السحرة في كل مكان وزمان وظيفتهم

إنهم مجرد ملمع لنعل فرعون وكل إمكاناتهم مسخرة لهذا الهدف

تزيين فرعون وشرعنة وجوده وترسيخ الهتاف باسمه والتشنج لأجل عزته

ما علاقة عزة فرعون بحرفتهم وما دخله بمهنتهم وفنهم؟!

إنهم يعتمدون في الأصل على نفخهم ونفثهم وعقدهم وغالبا لا يعبدونه كما يفعل العامة فللسحرة عقائد وعهود أخرى

لماذا إذن فرعون وعزته في هذا السياق؟

إنها الغاية من الإتيان بهم كما أسلفت

هذه وظيفتهم

وتلك دوما مهمتهم

لكن هذا كان في أول الأمر كما أشرنا

حين كانوا مجرد سحرة مخادعين

لكن عند لحظة الشهود للآية والمعجزة والعلامة = اختلف الأمر تماما وتغير القول بالكلية

آمنا برب العالمين

رب موسى وهارون

وقبل القول كان الفعل

كان السجود... بل الإلقاء ساجدين

وهذا ما لا يفهمه فرعون

والأهم والأخطر أنه لم ولن يقبله

وكيف يقبله و هو فقط من يحق له أن يرى، وهو فقط من يسمح لك أن تتبع وأن ترى فقط ما يرى

وهو يحتقر ويزدري ويسخر ويستهزئ بمخالفيه

هو فقط عند نفسه الأعلى والجميع دونه، وهو فقط ا لأعز والجميع أذلاء إليه، وهو وحده الحر والجميع عبيد له، وهو وحده الرشيد والجميع همج رعاع لا يرقون لفكره ولا يقتربون من عبقريته فكيف يجرؤون على مخالفته

هل نسوا أنفسهم؟

هل غابت عن أذهانهم حقيقتهم؟

هل ظنوا أنه حقا لم يعد يعرفهم؟

إن فرعون يرى نفسه حالة فريدة ليس لها شبيه، ودور الآخرين في الحياة أن يركعوا له فقط ويثنوا على أفعاله وحسب وينفذوا أوامره لا غير، والويل كل الويل لمن ناقش أو اعترض أو فكر

فما بالك لو قرر؟!

حتى لو كان ذلك القرار = سجدة

لكن كما أن فرعون كان يعرف سحرته ويدرك في البداية أطماعهم ويجيد مخاطبةما في نفوسهم = فإن السحرة أيضا كانوا يعرفونه جيدا

يعرفون خصاله ويستوعبون خصائصه التي تنتج عنها تصرفاته وتتفرع منها قراراته

وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا

هذه هي حقيقتك يا فرعون

تنقم منا الإيمان!

تنتقم لقبولنا الآيات البينات!!

هذا ما فهمه السحرة من سؤال فرعون الاستنكاري الذي ظهرت فيه بحماقته المعهودة حقيقة نواياه

آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ؟

هذا السؤال يعد جزءا مهما من الخطاب الفرعوني المتجبر الذي له خصائص ومحاور تظهر أهمها في خطاب فرعون في سورة طه

{آمنتم له قبل أن آذن لكم}

{إنه لكبيركم الذي علمكم السحر}

{فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في

جذوع النخل}

{ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى}

هذا الخطاب يمثل أربعة محاور مفصلية تتجلى من خ
لالها نفسية فرعون

أولا: السلطان على الفكرة.

ثانيا: التخوين والمؤامرة.

ثالثا: القمع والبطش.

رابعا: ترسيخ ثقافة الخوف وصناعة العبرة.

أما السلطان على الأفكار فيظهر جليا في قول فرعون:
قبل أن آذن

هذه هي العلة الذي ثارت لأجلها ثائرته وجن جنونه

لقد كان انزعاج فرعون بسبب التفلت من سلطانه على
الأفكار وسيطرته المحكمة على إرادة شعبه، وليست

فقط طبيعة هذا الإيمان وفحوى تلك العقيدة التي اعتنقوها أو الأفكار التي تشربوها.

لم تكن المشكلة فقط في نوعية الإيمان وتفاصيله
المهم أن يكون إيمانًا تحت السيطرة
إيمانًا مدجنًا منزوع الإرادة
إيمانًا يتحرك بالأمر، وعقيدة بلا عقيدة.

قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ

القضية المبدئية هنا كانت تكمن في الإذن
في التصريح..
في الاختيار بمنأى عن إرادة فرعون والخروج عن طوعه والاستقلال عن مذهبه ومعتقده..

في التحرر من سلطانه وسيطرته حتى على الأفكار و المعتقدات.

إن فرعون كما سبق وأشرت = يرى لنفسه الحق المطلق في تحديد أفكار الناس، وفي تقييمها، في تقسيمها وتصنيفها

في الحكم عليها وعليهم، وفي ثوابهم وعقابهم على أساس أفكارهم ومعتقداتهم

في توزيع صكوك الاستحقاق عليهم، وفي تحديد أدوارهم ومهماتهم.

فرعون يرى لنفسه فقط الحق في أن يحكم ويحاكم، ويعطي ويمنع، وينعم ويحرم، ويحل رضوانه على من يوافقه وينافقه، وينزل سخطه على من يخالفه ويرفض أفكاره ويتحرر من سطوته.

وهو لا يستطيع العيش إلا مع عبيد يهللون له ويباركون كل خطواته، أما من كان له رأي أو فكر أو إرادة خارج إطار إرادته وفكره فهو دوما عدو له، متآمر على دولته لابد أن يزاح عن طريقه .

وهنا يأتي المحور الثاني ويحين دور التشويه و الدعاية السوداء: {إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ}

أيها الخونة المتآمرون! إنه زعيمكم ومعلمكم إذن..

وما موهبتكم وصنعتكم السحرية إلا جزء من تلك المؤامرة الكونية على دولتنا البهية!

تناسى فرعون في لحظات أنه هو من أتى بهم من أنحاء القطر الواسع، وجمعهم بجنده واختارهم على عينه

تناسى فجأة طبيعة الأشياء وضعف وسائل خصمه المادية بالمقارنة بآلته الحربية وقدرته الآنية وحضارته القوية؛ فقد تجلت دعاية المؤامرة السوداء لتبرر ما سيحدث بعد قليل للخونة المتآمرين، الذين كانت كل جريمتهم السجود، وغاية خطيئتهم = ترك الا ستئذان قبل الإيمان، ونسيانهم الحصول على تصريح بالاعتقاد مختوم بالختم الفرعوني.

فكما قلنا ونقول ونكرر فرعون فقط من يحق له أن

يرى، وهو فقط من يسمح لأي شخص أن يرى بل أن يرى فقط ما يرى.

فإن لم يفعل فالنتيجة النهائية عنده هي..

{فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل}

إنه القمع إذن

المحور الثالث من محاور الخطاب الفرعوني

سبيل الضعيف وإن لبس لأمته ووسيلة العاجز وإن ادعى قوته وتمثل قدرته

السيف في مواجهة الفكرة والبطش في مقابلة العقيدة والعذاب لوأد الإيمان الذي لم يستأذن فيه الطاغي

ولكن لماذا؟!

هل هو الانتقام وحسب؟!

أم هو إسكات الصوت وكبح جماح الإرادة وقتل التحرر الإيماني من عبادة الطواغيت الذي مثله

السحرة؟!

ربما كل ذلك وغيره

لكن الأهم عند فرعون كان هو المحور الرابع

صناعة العبرة وترسيخ الخوف

{ولتعلمن أينا أشد عذابا وأقوى}

لا بد أن يعلموا

ولا بد أن يعلم الجميع

لا بد أن يبقى العبيد عبيدًا

وليكن هذا العلم عبر جسور الأشلاء الممزقة

وليُسقى لمتعلمي العبيد مع عصير الدماء المسكوبة وا لأوصال المتطايرة

ثم ليكن الصلب على تلك الجذوع السامقة

فالمسألة ليست فقط في العقوبة

ولكنه النموذج الذي لا بد أن يظهر للجميع

وليظل الإيمان المطلوب كما هو

إيمان رسمي حصري بالإذن

إيمان بلا إرادة وعقيدة بلا حرية وأناس على دين

ملكهم

على دين فرعون

لكن هل كان فرعون يدّعي؟

هل كان يتظاهر ويتقمص أم أنه كان فعلا يصدق ما يقول؟

هل كان يعلم حقيقته ويدرك بشريته أم كان حقا يظن نفسه إلها؟

هل كان خاطئا في نظره لنفسه أم كان يحسب نفسه مصيبا محقا؟

تلك الأسئلة يمكن تعميمها وإجمالها في سؤال لطالما كنت أسأله لنفسي:

ترى.. هل يعلم المخطئون أنهم مخطئون؟!

هل يدرك الفاسد أو المفسد أو الضال المُضل أنه كذلك وهل يلاحظ الظالم أنه يبغي ويجور ويتعدى؟!

وإن كانوا يعلمون ذلك ويدركونه فكيف ينظرون لأ نفسهم في المرآة دون أن يحتقروا أنفسهم وأفعالهم؟!

وكيف ينام هؤلاء؟

كيف كان ينام فرعون وقد ذبّح أطفالا واستحيا نساء واستذل رجالا؟

وكيف يضع هؤلاء جنوبهم مطمئنين وهم يدركون ويعلمون أنهم قد ظلموا أو انتقصوا من حق إنسان؟!

الحقيقة أن الإجابة عن الشق الأول من تلك الاسئلة هي بوضوح = نعم يعلمون!

هذا هو الأصل..

مهما كثرت المعاذير والمبررات التي يبرر كل منهم - بل كل منا - بها خطأه وتعديه فإن الأصل أننا جميعا نعلم حقيقة أفعالنا

أنا وأنت نعرف جيدا وندرك في غالب أمرنا تلك الحقيقة

مهما تجملنا وادعينا وبررنا وزينا أعمالنا فإن الأصل أننا حين نخلو بأنفسنا لن نتمكن طويلا من خداعها.

"بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ"

هكذا واضحة قاطعة بيّنها ربنا في كتابه..

مهما ألقى الإنسان معاذيره وساق حججه وأتقن مبرراته = فالأصل أنه يدرك حقيقة ما يفعله ويبصر بوضوح ما عليه نفسه..

"فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ"

كان ذلك رد فرعون وآله على تلك الآيات المبينات التي أرسل بها موسى إليهم..

كالعادة.. لا شيء جديد في ردهم!

اتهامات وتشكيكات وتسمية للأشياء بغير مسمياتها

لكن هل كانوا حقا يرون الأمر سحرا أو دجلا

الجواب يأتيك من ربك في الآية التي تليها من سورة النمل

"وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ"

إذاً فقد كانوا يعلمون!

بل ويستيقنون!!

وتلك شهادة ربهم الذي يعلم ما يعلنون وما في صدورهم يُخفون ويكتمون

لقد كانوا يعلمون

وكان فرعون يعلم

رغم كل من أحاطوا به من المُزينين، ومن حُشر حوله من الكهنة و السحّارين والمدلسين، ورغم كل من تكالب عليه من المداهنين والمطبلين، الذين هم لفتات الموائد آكلون، ممن يجعلون رزقهم أنهم يُكتَّبون ويَكذبون ولظلم فرعون هم يشرعنون = فقد كان يعلم

بل ويوقن

لقد ظل في نفسه وميض معرفة يوقن من خلاله أن كل هذا التطبيل والتزيين والنفاق والتأويل، ما هو إلا قشرة زائفة تحيط بحقيقته القبيحة

وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا

هذا بالنسبة للشق الأول من الأسئلة

لكن ماذا عن الشق الثاني؟

كيف سينام فرعون والملأ مع جرمهم وكيف مع خطاياهم سيتعايشون؟

كيف لا يحتقرون أنفسهم التي يعلمون حقيقتها الكامنة خلف الأصباغ والزينة؟

هناك عدة وسائل سيواجه بها فرعون خطأه وسيتعايش مع فساده وسيطبع مع ظلمه

وليس فرعون وحده من يجيد هذه الوسائل لكن الحقيقة أن كل مخطيء يجيدها بقدر قد لا يوازي براعة فرعون لكنه بلا شك سيطرق أبوابها ليستطيع التعايش مع خطاياه

أولى تلك الوسائل أن يتناسى تلك الحقائق التي يعلمها جيدا عن نفسه ويخدر ضميره ويخرسه تماما ويتغافل عن كل تلك النكزات والوخزات التي تؤرقه بها أحيانا بقايا ذلك الضمير

وحينئذ على من اتبع تلك الوسيلة ألا يجلس كثيرا مع نفسه وأن يعيش في صخب شديد وضجة عالية يخبو معها كل صوت ينبعث من أي ناصح أمين

بل حتى ذلك الصوت الذي ينبعث من روحه معاتبا أو مؤنبا ينبغي أن يخمده ومن ثم يخلد إلى فراشه آخر اليوم وقد خارت قواه وهوى في سبات عميق يشبه الغيبوبة فلا يملك الوقت ولا القدرة أن يراجع نفسه أو يحاسبها

الوسيلة الثانية تتلخص في كلمة واحدة (البجاحة) ..
هذا أنا وهكذا حالي وهو يعجبني على وضعه ذاك

هكذا يقطع على نفسه وغيره كل طريق لوم أو عتاب وتأنيب؟

وتلك درجة متقدمة من التفلت والفجور إذ كيف ستلوم من هو مفتخر بباطله متصالح مع فساده، منافح عنه ومدافع عن خلله وانحرافه

ولقد استعمل فرعون هذه الطريقة بوضوح

"قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ"

هكذا قالها صريحة وتبجح بها

ستؤمن بالإكراه اقتنعت أم لم تقتنع

إنها شهادة منه على نفسه أن الأمر مجرد إجبار وليس فيه من المنطق شيء

حين يصل المرء لهذه الدرجة من التبجح فهو لا ينكر أن ما هو عليه قد يكون خطئا أصلا لكي ينفق الوقت والجهد في إقناعه بأن ما يفعله خطئا

ولا هو معترف نادم يتمنى إصلاحا.. بل هو ببساطة

صريح متبجح بفساده مباهٍ به مُصرٌ عليه

أما الوسيلة الأخيرة فهي إدمان خداع النفس والركون إلى المهاترات والمعاذير الواهية والمبررات المتكلفة و الحجج المتهافتة حتى يحدث المحظور ويصدق المرء خداعه لنفسه ويقع في حبائل أكاذيبه وترهاته فتُطمس فطرته ويغيب تمييزه ويقتنع فعلا أنه على حق ويُزَيّن له سوء عمله فيراه حسنا

"أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا" [سورة فاطر]

وهذا في رأيي أصعب النماذج وأضل الأنواع ولقد سماهم الله بالأخسرين أعمالا

"قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا" (سورة الكهف)

ولقد حاول فرعون أن يستعمل هذا الأسلوب وأن يخدع الناس بحجج باهتة وأدلة واهية

"وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ"

[الزخرف 51 - 53]

الملك والأنهار التي تجري فيه والقدرة على البيان و الذهب والزخرف

هل هذه أدلة ألوهية

هل هي حجج أن صاحبها على حق

لا يقول ذلك إلا سفيه كفرعون

لكنه لجأ إليها وخدع بها نفسه ومن استخفهم

إن الواحد من هؤلاء في الحقيقة ليخدع نفسه قبل أن يخدع الناس والأدهى أنه يصدق أكاذيبه ويعجب بألا عيبه لدرجة مذهلة تصل به إلى أن يجتريء على ممارسة ذلك الخداع مع خالقه يوم القيامة

"يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ"

لكن مع كل ذلك الحلِف والظن أنهم على شيء فإن وصفهم الذي لا يغادرهم والذي ختم الله به تلك الآية يظل هو الكذب والخداع

"أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ"

وأول من كذبوا عليه وخدعوه = تلك الأنفس التي بين جنوبهم !

فيالحماقتهم!

وإن الحماقة والغباء حين يجتمعان مع الغرور ويمتزجان بالكبر والعجرفة الفارغة فإن المنتج النهائي = كارثة

كارثة تسمى فرعون

لقد عرف فرعون وأعوانه الحقيقة كما سبق وبيّنا واستيقنتها أنفسهم

لم يكونوا في حاجة لمزيد من المعجزات بعد كل هذه

البينات والآيات التي توالت عليهم

كانت الآيات والمعجزات كافية للغاية كي تستيقن الأ نفس

فلماذا إذن لم يتحول اليقين لامتثال وتسليم واتباع؟؟

إنها الحماقة الممتزجة بالكبر

حماقة تجعلهم لا ينتبهوا لتلك الرسائل التي احتوتها ا لآيات الأخيرة

رسائل العذاب

الخطر المحدق بهم

المصير الذي ينتظرهم

إنها لم تعد فقط معجزات للتحدي وإثبات القدرة ك العصا واليد البيضاء للناظرين

لقد صارت تمس حياتهم وواقعهم

لكن الغباء مستحكم

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ

أي سحر أيها الحمقى؟

إنها السنين

المجاعة

الجدب والقحط بسبب قلة مياه النيل وانحباس المطر عن أرض مصر ونقص الثمرات

وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ

لا فائدة

الغباء لم يزل سيد الموقف جنبا إلى جنب مع رفيقه الكبر

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ

ها هو الطوفان يتلف المزارع ويهدم البيان ويخرب المدن

والجراد الذي لا يدع أخضر ولا يابس في طريقه يبدو في الأفق

والقمّل

والضفادع

والدم

وزيد فى التوراة في سفر الخروج ما نذكره استئناسا دون تصديق أو تكذيب كما أمرنا: البعوض والذباب و الوباء والدمامل والبثور والرعود والبَرَد والظلام وموت الأبكار

الأمر كما هو واضح ليس فقط تحديا

إنه العذاب

الرجز

ألم يأن الأوان إذن ليعيدوا حساباتهم؟

لكن أنّي لغبي متكبر أن يفكر؟

و الحماقة والغباء جنبا إلى جنب مع الغرور والكبر لم تكن هي السمات الوحيدة التي ميزت شخصية فرعون وملأه

لقد انضمت إلى تلك الصفات صفة أخرى ظهرت بعد أن أعيتهم الآيات الأخيرة

صفة الخسة

النذالة

الوضاعة

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ۖ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ

هو عهد ووعد إذن

وعد بالإيمان مشروط بكشف العذاب!

هل لانوا واقتربوا؟

ها هم يذكرون رب موسى؟

إذن فإن فرعون يغير موقفه ولم يعد غير عالم أن لهم إلها غيره

يبدو أن الوضع سينفرج وقد ذكروا إله موسى بتصريح واعترفوا ضمنيا بقدرته على كشف الرجز و العذاب الذي ألمّ بهم

فلينكشف العذاب إذن

ولتبرز السمة القبيحة الأخيرة التي لن تكون بعدها

فرصا أخرى

الخسة

خلف الوعد

نكث العهد

فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ

لم ينصلحوا إذن ولم تلن قلوبهم

كانت مجرد مناورة غبية وحيلة حمقاء هدتهم إليها نفوسهم الدنيئة التي لا تعرف لوعد قيمة ولا تدرك لعهد أهمية

حتى لو كان عهدا مع الله

فليلاقوا إذن ما اكتسبوه بكامل إرادتهم واستحقوه بدناءتهم ووضاعتهم

فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ

وإن مآل إرادة فرعون إلى نقيض قصده ونهاية مطمعه ستكون ضد هدفه وعكس مطلبه

ولو بعد حين..

إن ممتطي الباطل ومنتعل البغي وراكب الظلم ظنا منه أن تلك هي الوسائل الموصلة لعلوه المبتغى سيفاجأ في النهاية أن السحر ينقلب على الساحر وأن يوما سيأتي سيقع فيه به ما كانوا يحذر ومن جنس ما كان يحذر.

هذه قاعدة محكمة من قواعد القرآن ووعد رباني قاطع أعلنه في شأن فرعون

لقد وعد الرحمن أولئك المستضعفين أن مآل بطش فرعون بهم وعاقبة ظلمه لهم ستكون وقوع ما يحذر

وبشرهم أن الطاغية سيرى ما كان يتقيه ويهرب منه من خلال هذا البطش والقمع

وسيراه منهم..

ممن كان يحذرهم ويقتل أبناءهم خوفا من تلك اللحظة

"ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون"

تدبر الكلمة مرة أخرى

منهم...

سيرى ما كان يحذر وسيلاقي ما كان منه يهرب وسيبور ما كان له يمكر

وكذا كل من طغى وتجبر

سيرى ما كان يحذر

وسيلاقي ما كان منه يهرب

وسيبور ما كان له يمكر

وسيعامل بنقيض قصده

ولو بعد حين

الكلمة نفسها طرقت مسامع ملك الأخدود بعد أن قتل الغلام ليكتم صوت الحق المنبعث من بين شفتيه

فكانت دماء الشهيد نورا يضيء للناس درب يقينهم برب الغلام وصاحوا : آمنا برب الغلام

هنا قالها رجل من بطانته مقرا بذلك المآل الحتمي:

أرأيْتَ ما كنْتَ تحذَرُ..

قد واللّٰه ِ نزَل بكَ حَذَرُكَ!

أجزَعتَ أن خالقكَ ثلاثة؟!

ها هي أمة بأكملها قد خالفتك وعن عبادتك أعرضت وبألوهيتك كفرت

قد آمَن النّاسُ ..

لقد قتل الملك ذلك الغلام ليمنع إيمانهم فكان قتله طريقا لإيمانهم ووقع ما كان يحذر

وبما كان يحذر

وبين جنبات التاريخ تتكرر تلك السنة التي يستبطئها البعض ويغفل عنها البعض أو يتغافلون وينسونها أو يتناسون لكنها وإن تأخرت فهي لا محالة واقعة شكك من شكك وتعجل من تعجل

المهم أن يريد الله

وفي تلك المواجهة بين فرعون وموسى كانت تلك الإ رادة واضحة معلنة من البداية

وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ

ونريد ..

وإرادة الله فوق إرادة فرعون ومنته ورحمته لا ممسك لها ولا مانع من تنزلها

هذه المنة لها خطوات أيضًا أولها الإمامة

{وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً}

أن يوجد في الأمة الأئمة والقادة والقادرون على الإص

لاح في الأرض

من هنا تأتي الوراثة

{وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}

ثم التمكين

ومن بعده يرى الفرعون ما كان يحذر

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأ َ ر ْض ِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُون

لكن كل ذلك كما قلت يبدأ بإرادة المن وهي مرتبطة بوجود الاستحقاق

لكن متى؟

هذا علمه عند اللّٰه

قيل أن أعواما مرت حتى استجاب اللّٰه دعاء موسى عليه السلام على فرعون وقومه

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ

رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

وقد كان..

طمس الله على أموالهم وشدد عليهم وأذاقهم العذاب الأليم

وفتح بين موسى وبينهم بالحق وهو خير الفاتحين

لكن متى؟

الإجابة عنده وحده

تأتي متى شاء وكيف شاء وإن طال الزمان واستيأس الناس فإنه يأتي في النهاية

المهم أن يوقن العبد ويثبت على الحق ولا يحملنه استبطاء الفتح على التفريط أو الشك

وأن يصبر

"فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ"

ولقد حان الوقت وأزفت ساعة الانتقام

إن هؤلاء لشرذمة قليلون وإنهم لنا لغائظون وإنا لجميع حاذرون

هكذا بدأ فرعون خطبته الختامية وشرع في رحلة التحريض الأخيرة لأتباعه ضد موسى عليه السلام وقومه

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يلبس على الناس تصوراتهم من خلال المصطلحات

لقد استعملها كثيرًا من قبل

فتارة هي مؤامرة وهو كبيرهم الذي علمهم إياها

وتارة أخرى هو مجنون

وتارة هم أراذل القوم بادي الرأي

وتارة هم سفهاء ماكرون

وتارة هم مفسدون يريدون تبديل الدين وإظهار ذلك الفساد

وتارة هم شرذمة قليلون هم له غائظون

عذرا..

ليس له..

بل لنا

للجميع

لابد أن يتحدث فرعون بلسان الكل

لابد أن يوحي لهم بأن الجميع على قلب رجل واحد

ولابد أن يكون هو طبعا هذا الرجل الواحد

ماداموا لفرعون غائظين فهم للجميع غائظين

لا يحق لأحد أن يخرج عن تناغم المنظومة الفرعونية أو أن يفكر بشكل مختلف عنها أو أن يكون له رأي حسن فيمن يرى فرعون السوء فيهم

وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ

إن فرعون لم يزل بعد حريصًا على أن يبدو في مظهر الحريص على الجماعة والذى لا يتخذ قرارا بمفرده

في خطبته الأخيرةلم يزل يتحدث بلسانهم ويسيطر على أفكارهم ولا يريهم إلا ما يرى ولا يهديهم إلا سبيل الضلال

ويا ليت تلك الخطبة الخاتمة كانت عصماء أو ذات قيمة تذكر

إنها بضع كلمات تأثيرية خاوية من المعاني خدع بها شعبا من المستخفين استحقوا أن يكونوا بذلك من الفاسقين

وهكذا دوما يغلف الطغاة قمعهم لمعارضيهم بوصفهم وتسميتهم بمستبشع الألفاظ ومستقبح النعوت وقميء الأوصاف

وهذا دأب معروف في صراع طويل بين الحق و الباطل

لم يحدث في التاريخ قط أن سمى طاغية معارضيه

باسم مستحسن أو حتى غير مستقبح

ولقد كانت دائمًا من أهم أساليب واستراتيجيات أهل الباطل تسمية الأشياء بغير مسمياتها وترسيخ المفاهيم المغلوطة وتكرارها حتى تصير هي الأصل بينما تضمحل الحقائق وتنزوي بعيدًا رويدًا رويدًا حتى تكاد تختفي خلف سحابة كثيفة من الغبار..

غبار الكذب والتحريف

لكن لماذا اقتحم فرعون البحر بعد أن انشق لموسى؟!

ألم يلحظ هذا الذى يحدث؟!

ألم يفكر هنيهة أن هذا المشهد المهيب الذي يراه ليس أبدا مشهدا عاديا؟!

ألم يوقفه هذا الصوت الهادر الذى يصم الآذان؟

لا أشك أن جيشه قد تسمر فى مكانه لهول المنظر

ولعل الخيل قد أجفلت وتعالى صهيلها، و كادت أن تسقط براكبيها لعظم المشهد

إنه الموج يتعالي

ما يحدث وتراه عين فرعون شيء مستحيل بكل المقاييس

لقد صار الموج يصافح السحاب و كأنه طود شاهق !

لماذا لم يحجم؟

هل بلغ غباؤه تلك الدرجة المذهلة؟!

لكأني أسمعه رغم كل هذا الهول يصيح: هلموا أيها الرعاع

تحركوا

أدركوهم

لا يمكن أن يفلتوا

أسرعوا فلقد كادوا أن يغيبوا عن البصر و تطويهم ظ لال جبلي الماء

هيا اقتحموا ، ما لكم تترددون ؟

إن كان موسى قد عبر فما يمنعنا من العبور خلفه ؟!

إنها مجرد ظاهرة طبيعية لعلنا فقط لم نسمع بها من قبل

هيا أيها الجبناء

ها أنا ذا أتقدمكم و لا يرهبنى هدير الماء ولا ظلال الحيتان

يا لحماقته..

بل هو على الأرجح خداعه لنفسه الذي بلغ أفظع مستوياته حتى يقدم على هذا الفعل الأرعن

ليست معجزات موسى بجديدة على ناظريه فكيف تصور أن تسخر له وأنه قد يستعملها لصالحه

الحقيقة أن إمكانيات فرعون العقلية ومواهبه كانت دوما محل شك بالنسبة لي خصوصا بعد تأمل هذا الموقف

والأكثر إثارة للعجب والدهشة هو ذلك التسليم المدهش والاتباع الأعمى لشخص محدود الموهبة وضعيف التفكير لهذه الدرجة

لكأني أرى بعيني تقدم أتباعه على مضض حين رأوا قائدهم الأرعن يقتحم تلك المخاضة المرعبة

لعلهم تقدموا يهمهمون باعتراضات مكتومة لم تمكنهم نفوسهم المستخفة الفاسقة من البوح بها رغم أنهم يشعرون بقدر الحماقة التى هم مقبلون عليها

إنهم يعلمون جيدا أن هذه معجزة جديدة من معجزات موسى فكيف يأمنون ألا تسلط عليهم ؟

يا لكبر قائدهم و غروره !

ويالخفتهم ورعونتهم أن اتبعوه على ما كان من غباء يطفح من أقواله وأفعاله

هلموا... أسرعوا الخطي فهاهو موسى و قومه يظهرون على الضفة الأخرى و قد عبروا بسلام

ها هو فرعون يحث الخطي و يكاد يطير بفرسه

هل هو قلق ؟

هل هو خائف أن يصير وجنوده وحدهم بين جبلى

الماء بين جبلي الماء بعد عبور موسى وقومه؟

أين ثقته التى كانت تقطر دوما من حروفه ؟!

أين كبره وعجرفته؟

أين ألوهيته المزعومة؟

أين ملكه وأنهاره التي تجري من تحته؟

ها هي تجري من فوقه

لقد التأم البحر

انطبق

هكذا وبدون مقدمات

عاد البحر لسابق عهده و ارتطم جبلا الماء !

وقضي الأمر

" فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين"

لكن ما القيمة الآن؟

فات الوقت

"فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون"

ها قد غاب جيش فرعون فى الأعماق و كتمت الأ مواج صرخاتهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا؟

الجواب لا

قد هلك الجميع وساد الصمت الذي لم يقطعه إلا هدير الأمواج المتلاطمة

لكن الأمر لم ينته بعد

ثمة صوت واهن يظهر بصعوبة خلف هدير الأمواج

صوت يتخافت تدريجيا ويزداد وهنا حتى تكاد لا تميز ما يقول

صوت يغرغر مختنقًا بعبرات تختلط ملوحتها بملح البحر وطميه الذي يدسه المَلَك الأمين في الفم الفرعونى الذي طالما تمرغ في النعيم

لعلك ببعض الجهد تتبين فحوى تلك العبارة الطويلة
من بين حشرجات الموت وتقطع السكرات

آمَنتُ أنّهُ لا إِلٰـهَ إِلا ّ َ الّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ
وَأنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

يا لها من عبارة طويلة بالنسبة لهذا الموقف العصيب

كل هذه الحروف والكلمات وليس فيها الكلمة الأعظم

ليس فيها اسم الله!

ألهذه الدرجة ثقل لسانك الأثيم عن النطق باسم الله؟!

تدعى الإيمان الآن؟

آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ

وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر
أحدهم الموت قال إني تبت الآن

فليزداد الاختناق

ولتتوالى السكرات والحسرات والندم على ما فات

لكن هيهات هيهات،

لقد هلك،

ومات،

مات أفجر طاغية عرفته البشرية

مات من قال أنا ربكم الأعلى وما علمت لكم من إله غيري

مات الذي قال أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي

فلتجرِ اليومَ من فوقه ولات حين مناص..

ها هو يغيب رويدًا رويدًا تحت الأمواج

ولكن كلّا..

لابد أن يكون آية

لابد أن يعرف الخلق أنه قد هلك لا يقولن أحدهم إله

علا في سماء.

لا بد أن يروه والطين في فمه والرعب على قسماته.

فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ

اليوم

عاشوراء

الذى ظن فرعون أنه سيكون يومه وعيده الذي سيتحاكى فيه الناس عن بطولاته وأمجاده وكيف كان وجنوده فوق عدوهم قاهرين

لقد ظل يومًا مشهودًا

يومًا من أيام الرب الذي جحده فرعون واستكبر عن عباده

يومًا أظهر الله فيه عبده عليه، وتركه آية لمن خلفه بعد أن أهلكه

ثم يأتي يوم القيامة إماما كما كان في الدنيا إماما

إماما للشر وبالباطل

يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ۖ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ * وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ"

وصدق الموقن الكليم في حرفه الواثق

كلا إن معى ربى سيهدين

وقد كان

هداه الله ونصره

وأهلك عدوه

ونجى فرعون ببدنه

ليكون لمن خلفه آية يعتبر بها من أراد العبرة

ويوعظ بها من ابتغى الذكرى..

فهل تراهم فعلوا؟!